**أَهمِيَةُ النَّصِّ الأدبيِّ فِي تَعلِيمِ قَواعِدِ النَّحو**

**عِندَ القُدماءِ والمُحدَثينَ**

**بقلم الدكتور سعدالدين إبراهيم المصطفى**

**أستاذ النحو والصرف والعروض المشارك بجامعة طيبة**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**مقدمة**

**الحَمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ وأفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليمِ على المبعُوثِ رَحمةً لِلعالمينَ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أَجمعِينَ، وبعد.**

يُعدُّ النَّصُّ الأدبيُّ أساساً في تَعلِيمِ القَواعِدِ النَّحويَّةِ، فالُّلغةُ العربيَّةُ ثَمَرةُ لِقاءٍ بينَ تَعلُّمِ النُّطقِ بِها من مُتَعلِميها، وبينَ مَعرفةِ القَواعدِ الخاصَّةِ بها، ومَوضُوعُ تَعلُّمِ الُّلغةِ واكتِسابِها يَعنِي الإفادةَ مِن القَواعِدِ ومن نَتائِجِ تَطبِيقِ الشَّواهِدِ والأَمثِلةِ الَّتي تُمَكِّنُ الدَّارِسَ مِن الإلمامِ بِها وإتقانِها.

والبَحثُ الوَصفِيُّ الَّذِي يُطبَّقُ فِي تَعلِيمِ العربيَّة وتعلُّمِ قَواعِدِها يَكمُنُ فِي تَعلُّمِ الُّلغةِ بِاعتِبارِها ظاهِرةً صوتِيَّةً مَكتُوبةً فِي المُقامِ الأوَّلِ، أي: النصَّ الأدبيَّ، ولن ننسى أبدأً أنَّ تَعلِيمَ القَواعِدِ النَّحويّةِ هو حَصِيلةُ الاستِعمالِ في المواقِفِ الكلاميَّةِ والثقافيَّة والاجتماعيَّةِ المختلفةِ، وأنَّ تَعلِيمَ الُّلغةِ العربِيَّةِ أخذَ يَضَعُ في اعتِبارِهِ دِلالةَ الكَلمةِ أو الجُملةِ أو العبارتَينِ فأكثرَ لا تتَّضِحُ عِندَ الدَّارِسِ إلا إذا دُرِسَتْ مُرتَبِطةً بمواقِفِ استِعمالاتِها، من خلالِ النَّصوصِ الفَصيحةِ.

فاستِظهارُ قوائِمِ المفرداتِ لا يَعنِي إدراكَ إيحاءاتِ المعنى المرادِ، ودِلالةُ الألفاظِ أو الكَلماتِ لا تُكتَسَبُ إلا في مواقِفِ استِعمالِها، ولا تُعلَمُ إلَّا فِي مِثلِ هذِهِ المواقِفِ أو بِبيانِ هذِهِ المواقفِ التي تَأتِي فِيها القواعدُ لِتَضَعَ الدَّارِسَ علَى الطرِيقِ الصَّحيحِ، فتَجِدَ الشَّواهِدَ والأمثلةَ ثمَّ تَضَعَ القواعِدَ وتُطبِّقَها علَيها.

فأيُّ نِظامٍ لُغَويٍّ يَتكوَّنُ من كلِماتٍ تُؤلِّفُ جُمَلاً لأَداءِ معنى فيه يَصِلُ إلى الفَهمِ الصَّحيحِ. والنَّصُّ الأدبيُّ الذِي يُستَخدَمُ في مجالاتِ الثقافةِ والعِلمِ والأدبِ الرَّفيعِ والتعلِيمِ هو ما يُصنَّفُ اجتِماعيَّاً بأنَّه فَصيحٌ، والنِّظامُ الذِي يَقتَصِرُ على مجالاتِ الثقافةِ والعلمِ والأدبِ هو الُّلغةُ العالِيةُ الفَصيحةُ التي تَحكُمُها قَواعدُ صَحيحةٌ ثابِتةٌ ومُطَّرِدةٌ. ونحنُ نبحثُ إلى جانِبِ البُنيةِ اللُّغويةِ عن القاعِدةِ النَّحويَّةِ أيضاً، والوَظيفةِ لِلُّغةِ التي تَجعلُ مجالاتِ الاستِخدامِ أمراً ضروريّاً.

**المَبْحَثُ الأَوَّلُ**

**أَهمِيَةُ النَّصِّ الأدبيِّ فِي تَعلِيمِ قَواعِدِ النَّحو**

**عِندَ القُدماءِ والمُحدَثينَ**

**1-الاستِعمال:**

لا تَقُومُ فائِدةٌ إلا بالاستِعمالِ، فما يَستَعمِلُهُ أهلُ اللغةِ، ويَصطلِحونَ علَيهِ هو الَّذِي يَكونُ مُفيداً دُونَ غَيرهِ، أي لا بدَّ للغةِ من المُواضَعةِ والاصطلاحِ أو التوقيفِ لمن لا يَقُولُ بالاصطلاحِ. ويَظهَرُ دورُ الاستِعمالِ في تحقِيقِ الفائِدةِ فِي الألفاظِ المستَعملةِ، وقد عُنِيَ أهلُ الُّلغةِ بتمييزِ المستَعمَلِ من المُهملِ، لأنَّهم بَنَوا عليهِ قواعِدَهُم، وقَدَّمُوا جُهُوداً رائِدةً في التحقُّقِ من السَّماعِ لِكُلِّ ما نُقِلَ من العربيَّةِ عن لِسانِ العربِ.

وقد قَدَّمَ التراثُ العربِيُّ في مجالِ الاستِعمالِ مَجمُوعةً مِن الفُروضِ العِلميَّةِ، فاللُّغويونَ العربُ لم يألُوا جُهداً في جَمعِ المادَّةِ اللغويَّةِ، فقد وَجَدُوا أنَّ الراوِيَ المثالِيَّ للغةِ هو مَنْ يَملِكُها فِطرةً وسَلِيقةً وطَبعاً دونَ تأثُّرٍ بأيَّةِ عوامِلَ لَهجيَّةٍ أو خارِجِيَّةٍ من الدُّولِ المحيطةِ كالفُرسِ والحُبشِ والرُّومِ .

وللُّغةِ العربيَّةِ الفُصحى ظرفٌ خاصٌّ، لم يتوفَّر لأيَّةِ لُغةٍ من الُّلغاتِ، فقد تَفاعَلَتْ معَ الَّلهجاتِ في أنحاءِ جزيرةِ العربِ وما أحاطَ بها، في القَديمِ، واليومَ معَ العاميَّاتِ وتأخُذُ منها وتُعطِيها، فهِيَ كائِنٌ حيٌّ تتطوَّرُ علَى أَلسنَةِ المتكلِّمِينَ بِها، فينشأُ من هذا التطوُّرِ اختلافٌ بينَ مستوى وآخر.

غَيرَ أنَّ العربيَّةَ الفُصحى لها شَأنٌ آخرُ، ذلِكَ أنَّها ارتَبَطَتْ بِالقُرآنِ الكرِيمِ مُنذُ خمسةَ عشَرَ قرناً، ودُوِّنَ بِها التُّراثُ العربِيُّ الَّذِي كانَ مِحورَه القُرآنُ الكرِيمُ، فِي كثيرٍ مِن مظاهِرِهِ، وقد كَفِلَ اللهُ-سبحانَهُ- لها الحِفظَ كما كَفِلَ ذلِكَ لِدِينِهِ، فقالَ: (إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ، وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ)[[1]](#footnote-1). فاهتِمامُنا بِنُصوصِ اللغةِ يَجِبُ أنْ يكونَ نابِعاً مِن هذا المنطلَقِ، وهو ارتباطُها بِالدِّينِ الإسلامِيِّ، والتُّراثِ العربِيِّ.

وإذا أصبَحَ هذا الرَّأيُ واضِحاً في أذهانِ القائِمينَ علَى تَعليمِ العربيَّةِ، لم يَجنحْ بِهِمُ الخَيالُ إلَى أنَّ إجادةَ تعليمِها سَيَقضِي علَى لُغةِ الحديثِ اليوميِّ، فَلَيسَ مِن الضَّرورِيِّ أنْ يَستَعمِلَ النَّاسُ إعرابَ أواخِرِ الكلِماتِ في أحادِيثهِم، فمِن القَواعِدِ المقرَّرةِ عِندَ عُلماءِ الُّلغةِ فِي العالمِ " أنَّهُ يَستَحِيلُ علَى مَجموعةٍ بشريَّةٍ، تَعيشُ فِي مِساحةٍ أرضيَّةٍ شاسِعةٍ، أنْ تَصطنِعَ فِي حَدِيثِها اليَوميِّ لُغةً موحَّدةً، تخلُو من اختِلافٍ صَوتِيٍّ، أو دلاليٍّ، أو اختلافٍ في البُنيةِ أو التراكِيبِ"[[2]](#footnote-2).

ومُمارَسةُ النُّصُوصِ العاليةِ، والإكثارُ مِن حِفظِها، ومُزاولةُ استِعمالِها هِيَ التي تُعطِي الدَّارِسَ التمكُّنَ فيها، والقُدرةَ على استِعمالِها استِعمالاً جيَّداً، وتَجعَلُهُ بكثرةِ مَحفوظِهِ قادراً على تَذوُّقِ الأساليبِ والتمييزِ بينَها، وهذا التذوُّقُ يجِبُ أنْ يَسبِقَ تَعلُّمَ القَواعِدِ نَظَرِيَّاً، لأنَّه إذا تَمكَّنَ في السَّامِعِ جَعَلَهُ يَشعُرُ بِالخطأِ إذا نَطَقَ بِهِ مُتكلِّمٌ، أو تكلَّمَ بِهِ نَفسُهُ، دونَ أن يُلِمَّ بِالقاعِدةِ.

وهنا يُمكِنُ أن نَقولَ: إنَّ تَعلُّمَ القَواعِدِ النَّحويَّةِ يأتِي إكمالاً لِحاسَّةِ التَّذوُّقِ، ومُفسِّراً للأخطاءِ، ومُوضِّحاً لِطبيعةِ التَّراكِيبِ العربيَّة، " وهذا الإحساسُ يَتكوَّنُ لَدَى الشَّخصِّ مِن خلالِ سَماعِهِ المُستَمرِّ لِلقَوالِبِ والتَّراكِيبِ الَّتي تَتَكَوَّنُ مِنها اللُّغةُ، ومن طريقةِ النُّطقِ لِلجُملِ الإخبارِيَّةِ والاستِفهامِيَّةِ والتَّعجُّبِيَّةِ، إذ إنَّ صَوتَ المتكلِّمِ لا بُدَّ أنْ يَتَغيَّرَ حَسبَ طَبيعةِ الجُملةِ، ارتِفاعاً وانخِفاضاً "[[3]](#footnote-3) .

وهذا الأمرُ لا يُمكِنُ تَحقيقُهُ إلا بالإكثارِ مِن قِراءةِ القُرآنِ قراءةً مُجوَّدةً صَحيحةً، وكذلِكَ الأحادِيثُ النَّبويَّةُ الشرِيفة، والعنايةُ بِكلامِ العربِ الفَصيحِ شِعرِهِ ونثرِهِ في العُصُورِ الزاهيةِ، لأنَّ المتعلِّمَ مهما أُوتِيَ من علمٍ بالقَواعِدِ النظرِيَّةِ لا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ فَصِيحَ اللِّسانِ بَيِّنَ الكلامِ جيِّدَ الفَهمِ، والنَّقدِ لِلنُّصُوصِ إلا إذا تَذوَّقَ اللغةَ ومارَسَها مِن خِلالِ نُصوصٍ حيَّةٍ وقويَّة.

1. الآية 10 من الحجر. [↑](#footnote-ref-1)
2. فصول في فقه اللغة العربية: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1417هـ-1997م، ص415. [↑](#footnote-ref-2)
3. مشكلات تعليم اللغة العربية: د.عباس محجوب، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1406هـ-1986م، ص27. [↑](#footnote-ref-3)